بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عند ما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة ، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها ، وإذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين ، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى ، ومن يومئذ وأنا توّاق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً ، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطنى ، مع التعريف بشخصياتهم ، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية .

ولقد كنت أرجو أن أُضَمِّن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء ، وعنيت فعلا بأن أقتبس بعضها فى شتى المناسبات ، ولكننى وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفى للتنويه بفضلهم ، وإبراز مبلغ مساهمتهم فى غرس الشعور الوطنى فى نفوس الأجيال المتعاقبة ، فواعدت نفسى أن أتفرغ يوما لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية ، وها أنذا أوفى بوعدى .

وإنى لأشعر أنى بإخراج هذا الكتاب ، أؤدى واجبا نحو أولئك الشعراء ، ونحو الحركة الوطنية ذاتها ، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية فى قصائدهم ، واهتزت لها مشاعرهم ، واستجابوا إلى نداء الوطن فى عالم الشعر والفن والخيال ، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية ، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم ، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم ، وترجمانا لهم فى آمالهم وآلامهم ، وأحاسيسهم وأهدافهم ، هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثنائه ، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم فى سجل واحد .

على أنى لا أقصد تقديراً لهم فحسب ، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم ، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية ، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطنى ونجعله فى متناول المواطنين جميعاً ، رجالا ونساء ، شيبا وشبانا ، فكلنا فى حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التى تملأ النفوس وطنية وإيمانا ،

وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة ، والتفانى فى أداء الواجب الوطنى ، فلعلها تدفعنا إلى السير دائماً إلى الأمام ، غير متوانين ولا متنابذين ، مستمسكين بالمثل العليا فى حياتنا القومية .

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية — إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه — هى قطعة من تاريخ الحركة الوطنية ، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها ، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب . والأدب الوطنى له الأثر الذى لا ينكر فى تكوين المواطن الصالح ، والشعر بما يطبع فى نفس الشاعر من التحليق فى سماء الخيال ، والتطلع إلى المثل العليا ، يمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها ، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة ، ويستحثها على النفور من الذل ، وإباء الضيم ، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد ، وشعراء الوطنية فى مصر لهم فى هذه الناحية فضل عميم ، فكم ناصروا الحركة الوطنية فى مختلف عهودها ، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم ، وسجلوا حوادثها الهامة ، وأشادوا بمفاخر الشعب ، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم ، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته ، وتنتصف له من المظالم التى حاقت به ، وإن كثيراً من روائع الأدب التى جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية ، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب ، فتذكى فى نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية .

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر فى نفوس المواطنين وستحركها على الدوام ، مهما تقادمت عليها الأعوام ، ألست ترى إلى نشيد المارسلييز ؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويثير فى نفوسهم روح الجهاد والفداء ، ويقدرون له قدسيته الفنية والوطنية .

ولعل فى جمع عيون الشعر الوطنى فى كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء فى إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوى يتجدد على تعاقب العهود والعصور ، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم ، وتقديراً لذكرياتهم ، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنيها ، فى مختلف الميادين ، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر ، ولا هى وقف عليه ، بل هى ثمرة الجهود المتواصلة التى يتوارثها المواطنون جيلا بعد جيل ، وما أضعف الروح

الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد ، لأنها بذلك تكون رخوة البناء ، مقفرة المعالم ، أما الوطنية الوطيدة الأساس ، العالية الذرى ، فهي التي تجمع بين مجد الماضي ، وجهاد الحاضر ، وأمل المستقبل .

إن في قيثارة الشعر سلوى للقلب ، وغذاء للروح ، و إنها لتوحي إلى النفوس أسمى معاني الإنسانية ، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية .

هذه المعاني والخواطر هي التي ألهمتني إخراج هذا الكتاب ، وكم يطيب لي أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم ، بل تنسينا أسماء بعضهم ، في حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم في بعث الوطنية لا تمحى ، والأدب في حاجة إلى استذكار أشعارهم ، فإنها حقاً عماد الأدب الرفيع وكيانه ، وهذه الأشعار هي في ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب في مختلف طبقاته .

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسي قبل أن أرسم خطوط الكتاب : من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطني ؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد شوقي وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها في إحياء مشاعرنا الوطنية ؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطني ، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقي وحافظ . وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ، ولا يرضاه شوقي وحافظ ، على علو كعبهما و بلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية .

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على شوقي وحافظ .

إنني عندما أرخت لمصطفى كامل بحثت في بداية الحركة الوطنية الحديثة ، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تأريخاً لها ، أم أن لها بداية سبقت ظهوره ؟ وعلى أنني تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذي له هو من البواعث على إخراجي لتاريخه ، كما نوهت إلى ذلك في مقدمة كتابي عنه ، فإني قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل ، لأقف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة ، وانتهى بي البحث إلى أن بدايتها — في تاريخ مصر الحديث — ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي

اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، ومن ثم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية . وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ .

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك مثل هذا المنهج ، فرجعت فى بدايته إلى الماضى . ووجدت أن روح الوطنية — بمعناها الحديث — قد بدأت تدخل الشعر المصرى ، وتبعث فيه من حياتها و بهائها ، وتضفى عليه من جمالها ، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عشر ، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوى ، فإلى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطنى فى مصر ، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطنى فى تاريخنا الحديث .

فلنبدأ إذن برفاعة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر .

و يطيب لى فى صدد التنو يه بشعراء الوطنية ، أن أعتذر عما فاتنى من تأريخهم ، وأعوزنى الحديث عنهم ، فإنى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره ، فإذا كان قد فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين ، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً ، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا لى مغموراً فى بحر شعرهم الفياض ، وهذا لا يغض بداهة من منزلتهم فى عالم الشعر والأدب ، وحسبى عذرا لى أن رأيى التقديرى فى تخيّر شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفضية ، عكفت عليها سنين عديدة ، ولم أقتصر على ما وعته ذاكرتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات ، ولا على دواوين الشعراء ، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات ، عاما بعد عام ، قرابة نصف قرن من الزمان ، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية ، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أوديوان ، ومع ذلك فإذا انتهى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه ، ضمن شعراء الوطنية ، فإنى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب ، لأنى أود حقًّا أن أستكمل أى نقص بدا منى فى هذه الناحية ، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل فى كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى .

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطنى و إذاعته ، وتعميمه بين المواطنين ، والحمد لله أولا وأخيراً ؟

يونيه سنة ١٩٥٤ — عبد الرحمن الرافعى